مجلة مركز بحوث و دراسات
المدينة المنورة

مقتنيات الحجرة النبوية - تقرير عثماني
تأثير التنمية الحضرية في المدينة
المراغي و كتابه تحقيق النصرة
محمد كبريت المدني أدبه و مؤلفاته
دليل الرسائل الجامعية عن المدينة المنورة

العدد الأول محرم ـ ربيع الأول ١٤٢٢ هـ مارس ـ مايو ٢٠٠٢ م

محمد كبريت الحسيني المدني

أدبه ومؤلفاته الأدبية

د. عائض الردادي

انحسر الدور السياسي للجزيرة العربية بعد انتهاء الخلافة الراشدة، ولكن الانتعاش الأدبي بقي لها زمن بني أمية وشطراً يسيراً من العصر العباسي الأول ثم بدأ الاهتمام الأدبي بها يخفت قليلاً قليلاً حتى فُقد خلال العصور الوسيطة ولم يعد الاهتمام بها إلا في العصر الحديث بعد عودتها للمشاركة في الحياة العامة.

وقد تهيب كثير من الباحثين خوض غمار دراسة أدب الجزيرة في تلك العصور ليس ممن عنوا بدراسة الأدب في مراكز الثقافة في مصر والشام والعراق والمغرب وحسب، بل ومن أبناء الجزيرة العربية الذين سار كثير منهم على خطى سابقيهم في الإعراض عن دراسة أدب الجزيرة العربية في تلك العهود أيضاً، غير أن نفراً قليلاً خاضوا في دراسة أدب الجزيرة في العصور الوسيطة واستطاعوا أن يوجهوا نظر الدارسين إلى ضرورة إزالة هذا الظلم الذي لحق بهذه البلاد من الدارسين، ومازالت الدراسات تتوالى دراسة وتحقيقاً، وتكشف للباحثين مصادر البحث التي بدأت تعنى بها مراكز البحوث والدراسات التي أنشئت في مختلف أنحاء الجزيرة العربية.

ولا بد لي من الحديث بإيجاز عن البيئة الثقافية والاجتماعية في الحجاز في القرن الحادي عشر الهجري الذي عاش فيه محمد كبريت بن عبد الله الحسيني قبل الحديث عن أدبه ومؤلفاته الأدبية، فتلك البيئة هي المناخ الذي هيأ لظهور أدب ذلك الزمن.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

البيئة الثقافية:

قابل موجة النــزوح البشري من الجزيرة العربية في القرون الأولى موجة تدفق بشري عليها من شتى الشعوب الإسلامية من القرن السابع الهجري وما بعده، وبدأ المجاورون يكثرون في القرن الثامن ثم بلغوا المئات في القرنين التاسع والعاشر ممن ترجم لهم السخاوي في (الضوء اللامع) والشوكاني في (البدر الطالع) والغَزي في (الكواكب السائرة) وابن القاضي في (درة الحجال في أسماء الرجال) والخفاجي في (ريحانة الألباء) وغيرهم.

وتميز القرن التاسع بخاصة **بالمدرسة الفكرية التي تزعمها السخاوي بمكة المكرمة والمدينة المنورة** في مجاورته وزيارته للمدينتين، وشهدت القرون الثلاثة (الثامن والتاسع والعاشر) موجة مجاورة للعلماء بالحجاز آتت أكلها في عودة الحياة الثقافية ساعد عليها عناية سلاطين ذلك الزمان بإنشاء المدارس والأربطة وإيقاف الأوقاف.

وقد امتد هذا التدفق البشري في القرن الحادي عشر، ولئن كان يغلب عليه في القرون السابقة العلماء فإنه في هذا القرن كثرت فيه دهماء الناس إلى جانب العلماء حتى أصبحت ظاهرة المجاورة ظاهرة اجتماعية بارزة ليس المجال هنا مجال حديث عنها، وما يهمنا هنا مجاورة العلماء ذات الأثر الثقافي ممن نجد تراجمهم في كتاب "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر" للمحبي و "عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر" للشلي وفي كتاب "فوائد الارتحال ونتائج السفر في أخبار القرن الحادي عشر" لابن فتح الله الحموي الذي يعد أجمع كتاب في تراجم علماء وأدباء الشام والحجاز واليمن في ذلك القرن أما تراجم أدباء الحجاز بخاصة في ذلك الزمن فنجدها في كتب "سلافة العصر" لابن معصوم و "نفحة الريحانة وذيلها" للمحبي، و"نفحات الأسرار المكية ورشحات الأفكار الذهبية" للذهبي، و"ريحانة الألباء" للخفاجي وغيرها.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وقد تحدث المؤرخون عن **الأثر الكبير للمجاورة في بعث حياة ثقافية في الحجاز،** فها هو أبو سالم العياشي الرحالة المغربي(١٠٣٧-١٠٩٠هـ) يتحدث عمن لقيه من العلماء الساكنين والمجاورين في المدينتين المقدستين، ويصف مكتباتهم ويورد شعرهم في رحلته(ماء الموائد) [١] ومثله عبد الرحمن الذهبي(ت١١٢٠هـ) الذي رحل في طلب العلم سنة ١٠٧٨هـ إلى كل من القسطنطينية وبغداد وحلب واللاذقية والقاهرة ثم توجه إلى مكة والمدينة ومما قال: "وكان القصد بعد أداء الحج في ذلك العام التوجه بنية الإقامة بمدينة النبي _ عليه أفضل الصلاة وأتم السلام _ حيث وجدت فيهم من تشد إليه الرحال، وتنتهي عند رؤيته نهاية الآمال، بساحة فضله أنخت الركاب، وألقيت العصا والجراب"[٢]وكان من ثمرة ذلك تأليف كتابه" نفحات الأسرار المكية ورشحات الأفكار الذهبية" وقد علل هذه التسمية بقوله فيه:"أكثر تراجمه أنشأتها مدة مجاورتي بمكة المكرمة وأنا مقيم بحجرة لي في إحدى المدارس السليمانية"[٣].

وكان غرس الدين الخليلي ثم المدني من أشهر المجاورين وقد وجه لخطابة المسجد النبوي فصار منهلاً للواردين طلباً للعلم، ومرجعاً للفتوى، ومن ذوي الجاه فيها، وقد رفع باسم أهلها الشكاوى شعراً، في قصيدة خاطب بها الصدر الأعظم مصطفى باشا(رئيس وزراء السلطان مراد بن أحمد بن محمد

(١) ماء الموائد١/٣١٥ ومابعدها، فهرسها محمد حجي،ط٢ مصورة، الرباط سنة ١٣٩٦هـ/١٩٧٧م.

(٢) نفحات الأسرار المكية،ورقة/٤، مخطوطة مصورة لدى الكاتب من مكتبة برلين.

(٣) المصدر نفسه،ورقة/٧.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بن مراد) طالباً منه عزل شيخ الحرم وحاثّاً إياه على إزالة العبيد الخصيان من المسجد النبوي الشريف وذلك سنة ١٠٤٨هـ، ومنها(٤):

يا مصطفى، بالمصطفى العدناني وبــآي قرآنٍ عظيم الشــان

لا تجــعلنْ على المدينة أسوداً شيخاً على حرم النبي العدناني

إلى أن يقول :

إن لم يجــز إلا خصياً أسوداً فاخصوا لنا شيخاً من البيضان

وقد درس هؤلاء المجاورون ودرَّسوا، وألفوا الكتب وألفت عنهم، وتطارحوا الإخوانيات مع شعراء الحجاز مما كان سبباً من أسباب انتعاش الشعر في ذلك الزمن وسوف يتضح لنا فيما بعد أثر المجاورة في أدب محمد كبريت ومؤلفاته.

الرحلات:

أما الأمر الثاني الذي لا بد من التعرض له لما له من أثر في أدب محمد كبريت ومؤلفاته فهو الرحلات، وقد ازدهر أدب الرحلات في القرن الحادي عشر الهجري، وكانت كتب الرحلات من أبرز مظاهر الثقافة فيه، والراحلون قسمان: أحدهما رحل إليه والآخر منه، وكل منهما أثر في انتعاش الأدب والثقافة، وزاد تأثير الرحلات عن المجاورة بأنه لم يقتصر على تأثير الرحالة الوافدين بل إن الرحالة الحجازيين أموا الأقطار الأخرى فأخذوا عن علمائها، والتقوا بشعرائها، وألفوا عن رحلاتهم وبذلك أضافوا ثماراً أخرى إلى ثمار رحلات الرحالة الوافدين إليهم.

---

(٤) المحبي: نفحة الريحانة٣٤٦/٤، تحقيق د.عبد الفتاح الحلو،ط١، سنة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، عيسى البابي الحلبي وشركاه.وخلاصة الأثر٢٤٧/٣، دار صادر بيروت وغيرهما.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أما الرحالة الذين وفدوا للديار المقدسة فهم أوسع من أن يتسع المقال للكلام عنهم أو عن رحلاتهم، ومن أشهرهم أبو سالم العياشي صاحب رحلة "ماء الموائد" ويكفي عنها ما قاله علامة الجزيرة الأستاذ حمد الجاسر حين قال: "والواقع أنها جديرة بالدراسة العميقة ولا سيما ما يتعلق منها بالحجاز، فهي_ ولاشك_ من أوفى المراجع وأصحها لكل من يريد أن يدرس حالة هذه البلاد في القرن الحادي عشر الهجري"(٥) ونذكر في هذا المجال أن بعض المؤلفين عن الأدباء حين هموا بتأليف كتبهم الأدبية وخانتهم المصادر عن أدباء الحجاز لم يجدوا بداً من شد الرحال إليه، وتأليفها هناك كالشهاب الخفاجي حين ألف " ريحانة الألباء"(٦) والذهبي في كتابه "نفحات الأسرار المكية"(٧) والمحبي في كتابه "نفحة الريحانة" ومما قال في ذلك "فحين منَّ اللّه عليَّ_ وله المنة والمنحة التي لا يشوبها كدر المحنة _ بالحج والمجاورة في بيته المحترم، وبسمت لي من أهله ثغور الفضل والكرم، حصلت على ضالتي التي أنشد... فتناولت من أشعارهم ما نمقته وشياً مذهباً بذكرهم"(٨).

والرحالة من الحجاز إلى الأقطار الأخرى اضطرتهم ظروف قاسية للسفر، منهم محمد كبريت في رحلته" رحلة الشتاء والصيف" التي سنتحدث عنها، ومنهم إبراهيم الخياري (ت١٠٨٣هـ) الذي رحل سنة ١٠٨٠هـ إلى الشام لمقابلة العلماء فلما جاءه الخبر بأن التدريس في المدرسة الذي ورثه فيها عن والده قد انتزع منه وأعطى وَقْفها لغيره؛ قصد القسطنطينية وقابل شيخ

(٥) مجلة العرب، سنة١٢ العددان ١و٢ص٦٨ وانظر عن الرحلات إلى الحجاز كتابي: الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري ١٣٣/١ ومابعدها ط٢، الرياض،١٤١٣هـ/١٩٩٢م، مطابع الشريف.

(٦) انظر مقدمة ريحانة الألباء ٩/١، تحقيق د. عبد الفتاح الحلو،ط١، ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

(٧) وقد سبق نص ماقاله في ذلك.

(٨) نفحة الريحانة ١٣/١و١٤.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الإسلام يحيى بن عمر المنقاري (ت١٠٨٨هـ) ودخل في رحلته دمشق والقدس والخليل وغزة والقاهرة، وممن قابلهم عبد الغني النابلسي صاحب رحلة " الحقيقة والمجاز في رحلة الشام ومصر والحجاز" وألف رحلته " تحفة الأدباء وسلوة الغرباء" وهي مطبوعة في ٣ أجزاء، أما قيمتها الثقافية فيقول عنها الأستاذ حمد الجاسر:" والواقع أن رحلة الخياري من أهم المصادر لدراسة كثير من أحوال القرن الحادي عشر الهجري في الحجاز وفي الشام، وفي بلاد الترك التي زارها، ففي هذه الرحلة معلومات جغرافية وتاريخية وأدبية، وفيها تراجم لكثير من العلماء، وفيها شعر كثير"[٩].

وتأتي رحلة ابن معصوم المدني" سلوة الغريب وأسوة الأديب" من أهم الرحلات حيث دون مشاهداته وتجارب سفره في عدة بلدان من بينها الهند والعراق وإيران واليمن وهي رحلة مطبوعة[١٠] .

والخلاصة **أن الرحلات أثرت البيئة الثقافية** بانفتاح الحجاز على البلاد الأخرى بعد أن مكث قروناً منطوياً على نفسه مما أنعش الأدب فيه ووجه نظر المؤلفين للاهتمام به.

<u>مناهل العلم:</u>

أما مناهل العلم فمن أهمها حلقات العلم في الحرمين الشريفين، وفي منازل العلماء، ومدارس كثيرة في مكة المكرمة خصص لها علي الطبري (ت١٠٧٠هـ) فصلاً في كتابه "الأرج المِسْكي في التاريخ المكي" ووُجد مدارس مثلها في المدينة المنورة، وقلّ أن تجد مدرسة بلا رباط وأوقاف ومكتبة

(٩) مجلة العرب ، السنة الرابعة١٢/١١٠٧ وانظر كتابي، الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري١/١٤٢ ومابعدها.

(١٠) انظر عنها كتابي السابق١/١٤٥ ومابعدها.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

موقوفة عليها فكانت حلقات العلماء في المسجدين الشريفين وفي منازلهم ودروسهم في المدارس سبباً في انتعاش الثقافة [١١].

وحفلت مكتبات مكة المكرمة والمدينة المنورة بالكتب، وقد وصف العياشي مكتبات مكة والمدينة في رحلته وما كانت عامرة به من الكتب وبخاصة النوادر، وما لحق بها من كوارث مما لا يتسع المجال للإطالة فيه، ولكنه كان سبباً من أسباب انتعاش الثقافة في ذلك الزمن[١٢] .

هذه خلاصة موجزة جداً عن البيئة الثقافية التي نشأ وعاش فيها أديبنا محمد كبريت الحسيني، فمن هو؟

محمد كبريت:

هو محمد كبريت بن عبد الله بن محمد الحسيني المدني، ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، ولد بالمدينة المنورة وعاش ما بين سنتي (١٠١٢_١٠٧٠هـ) فهو من أهل القرن الحادي عشر الهجري، واسمه المركب" محمد كبريت" ورد في شعره فقد قال مورّياً ومضمناً[١٣]:

يــا من تمادى بهجرٍ ماله سبب وصدَّ عمداً يرى في ذاك تبكيتي

كأن هجرك بعد الوصل يا أملي "أوائل النار في أطراف كبريت"

والشطر الأخير مأخوذ من قول الشاعر في زهرة البنفسج:

كأنها فوق قاماتٍ ضعفن بها أوائل النار في أطراف كبريت

ثقافته:

(١١) انظر عن المدارس والأربطة المرجع السابق١/١٤٨-١٦٥.

(١٢) انظر المرجع السابق١/١٦٥-١٧٥.

(١٣) ابن معصوم:سلافة العصر/٢٥٨،ط ٢ ، ١٣٨٢هـ مطابع علي بن علي بالدوحة.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

حفظ القرآن الكريم، وبرَّز في علوم النحو والصرف والبلاغة ، وأخذ العلم عن كثير من العلماء داخل المدينة وخارجها، واجتمع بكثير منهم أثناء رحلته، ودرَس بالجامع الأزهر، ويمكن أن يقال عنه: إنه كان واسع الاطلاع، منهوماً بالمعرفة ، فهو ذو ثقافة واسعة في علو م الدين والعربية والزراعة والفلك، أما الشعر فقد حفظ الكثير منه ولهذا امتلأت كتبه بالاستشهاد به.

إن مؤلفاته تدل على رسوخ قدمه في كثير من العلوم، ومما يدل على ذلك ما كتبه في رحلته عن دهشته لما وجده من مستوى ثقافي متواضع في القسطنطينية عندما زارها سنة ١٠٣٩هـ حيث قال[١٤]:" ولقد كنت أزعم أن أصير باختلاطي بالروم[١٥] بعد العرب جامع الفضيلتين، ولا أقول القياس يتبع أخس المقدمتين، إلا أنني حصلت من الفقه على مسائل الطهارة، وفي الإشارة ما يغني عن العبارة، وصرت لا أعرف من النحو بعد ذلك الثبوت إلا كثرة شربي السويق وهو ملتوت، ولا أفهم من التصريف مقالاً إلا قاتل يقاتل مقاتلة وقتالاً، ومن المنطق بعد بذل المجهود إلا إذا كانت الشمس طالعة فالنهار موجود".

إنه شاعر ، مؤلف، رحالة، مؤرخ، وسنقتصر على أدبه فقط وبعض مؤلفاته ذات الصلة بالأدب أما الجوانب الأخرى فهي تحتاج إلى بحوث أخرى .

رجل الإصلاح:

حظي محمد كبريت بمكانة بين معاصريه في المدينة وفي البلاد التي زارها، وأظهر العلماء ذلك الإكبار له حين ترجموا له في كتبهم، كقول المحبي

(١٤) رحلة الشتاء والصيف/١٧٩، تحقيق محمد سعيد الطنطاوي،ط ٢ ، ١٣٨٥هـ المكتب الإسلامي ، بيروت.

(١٥) الروم: الترك

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

عنه في خلاصة الأثر في أهل القرن الحادي عشر[١٦]:"كان من أعجب خلق الله تعالى في الأخذ بأهداب الفنون، كثير النوادر، جم المناقب".

وكقول ابن معصوم في سلافة العصر[١٧] :لا تمل ندماؤه مجالسته، ولا تسأم أصحابه مؤانسته، إلى فصاحة ولسن، وتجمُّل بكل خلق حسن، تقنع بقناع القناعة والكفاف، واشتمل بأبراد الصون والعفاف، سلك مسلك من نبذ الدنيا وراء ظهره، ورضي منها بمسالمة خطوب دهره".

ولقي محمد كبريت من الناس ما يلقاه كل عف يد ولسان من إنكار وجحود فقد نقم كبريت على بعض أهل زمانه تكالبهم على الدنيا، ومضايقتهم للناس في عيشهم، فهو يرى أن يتصف العلماء بالصون والعفاف ويصونوا علمهم عن الابتذال، وهذا ما أتعبه حتى وصل به الحال أن يرى نفسه غريباً في أرضه وبين أهله، كما عبر عن ذلك شعراً بقوله [١٨]:

ليست على الحر الكريم مشقةٌ بأضرّ من ألاَّ يُرى أمثالُهُ

ذاك الغريب وإن يكن في أهله وارحمتاه له لِمَا قد نالــه

فقد كان له موقـف من الفساد الإداري، ومنـــه ما ذكره في كتـــابه(الجواهر الثمينة في محاسن المدينة)[١٩] من سوء توزيع للتَّفْرِقَة السلطانية وهي الحنطة التي كانت تصل إلى المدينة من الأوقاف لتوزع على أهلها، فقد ذكر أنه يجتمع لتوزيعها الكتَبَة مع القاضي وشيخ الحرم (كبير الخدم) وتُفرَّق بمقتضى الدفاتر، وكانت توزع على رأس كل شهر، لكل شخص حصة، ثم آل الأمر إلى أن صار يكتب للرجل الواحد المنفرد نحو الستين حصة بالوجاهة وغيرها، ومن وُلد له من ضعفاء المدينة لا سبيل إلى كتابة اسمه، ويذكر أن

---

(١٦) ٢٨/٤

(١٧) ص/٣٥٧

(١٨) المحبي :نفحة الريحانة٣٥٨/٤.

(١٩) ٣٠٠/١، تحقيق:عائض الردادي،ط٢، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، مطبعة سفير، الرياض.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

جملة الأسماء كانت تناهز ستة آلاف، فتجاوزت _ وإن خلا أكثرها من المسميات _ عشرين ألفاً".

وكان موقفه الإصلاحي من الفساد الإداري سبباً لرحلته إلى القسطنطينية ثم لتأليف كتابه الجواهر الثمينة في محاسن المدينة، ولكنه لم يجن من ذلك إلا مواجهة الناس له، ولم يلق من عفافه وعزته إلا الفقر بعد الغنى، والشدة بعد الرخاء التي عبر عنها في قوله(٢٠):

الحمد لله على ما أرى ... من ضيعتي ما بين هذا الورى

صيَّرني الدهر إلى حالة ... يرثي لها الشامت مما يرى

بُدّلت من بعد الرخا شدةً ... وبعد خبز البيت خبزَ الشِّرا

وبعد سكنى منزل مبهج ... سكنت بيتاً من بيوت الكِرا

ولو تحقّقتَ الذي نالني ... لارتفع الشك، وزال المرا

لقد رأى كبريت أنه ضائع في مجتمع تهالك الناس فيه على المادة وأصبح لا مكان فيه لمن يحمل بين جنبيه نفساً أبيّة وأن من يرجى هو من بيده الدينار، فقال في ذلك(٢١):

إذا عزَّ من تهوى ولم ترَ حيلةً ... فليس سوى الدينار أرجى وأرجحُ

يهوّن صعب الأمر في كل مُعْضل ... وفي كل أمر، فهْو أنجى وأنجح

ولهذا فكر في أن يرحل علّه يجد من يعرف قدره، فقال(٢٢):

ينازعني شوقي إلى الهند تارةً

وأخرى لأرض الروم، والشوق لا يجدي

(٢٠) المحبي :نفحة الريحانة٤/٣٦١.

(٢١) رحلة الشتاء والصيف/١٧٩.

(٢٢) المحبي :نفحة الريحانة٤/٣٥٧.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وما الهند من قصدي ولكنْ بسوحها

رأى قصده فـيها الفؤادُ من الوجد

وهكذا نرى أنه أخذ يفـــــــكر بالرحلة للهند أو أرض الروم (القسطنطينية) عاصمة الخلافة، أما الهند فلأن نظام الدين أحمد بن معصوم والد علي بن معصوم المشهور استدعاه ملك حيدر آباد وزوجه ابنته وولاه الوزارة، وقد قصده هناك كثير من شعراء الحجاز في ذلك الوقت، ومنهم الشاعر المدني حسن بن شدقم الحسيني الذي رحل للهند وقال في ذلك أبياتاً ثلاثة استشهد بها كبريت في رحلته مقدماً له بقوله: ما أصدق ما قال الحسن ابن شَدْقَم(٢٣):

وليس غريباً من نأى عن دياره إذا كان ذا مــالٍ، وينسب للفضل

وإني غريب بيــن سكان طيبةٍ وإن كنت ذا مــالٍ وعلمٍ وفي أهلي

وليس ذهاب الروح يوماً منيَّةً ولكنْ ذهاب الروح في عدم الشِّكْل

غير أن كبريت حزم أمره ورحل إلى القسطنطينية حاملاً شكوى أهل المدينة من سوء الأحوال السياسية والاقتصادية وقد وصف معاناته في رحلته التي سمَّاها (رحلة الشتاء والصيف) وسنأتي على شيء منها عند الكلام عن مؤلفاته.

لقد سافر كبريت إلى القسطنطينية سنة ١٠٣٩هـ ولكن رحلته باءت بالإخفاق ولم تثمر إلا ثمرة ثقافية هي معاناته التي ألف عنها رحلته (رحلة الشتاء والصيف) غير أنه لم يستسلم بل سلك مسلكاً آخر فألف كتابه(الجواهر الثمينة في محاسن المدينة) الذي ضمنه شكواه مما تعاني منه المدينة وأهداه إلى قاضي مصر شعبان بن ولي الدين النَّوَسِيلي البوسنوي الذي حج سنة ١٠٤٨هـ وبرر فيه سبب إيجازه في الكتاب بما هو فيه من هموم، ومما قاله

(٢٣) رحلة الشتاء والصيف/١٠٦.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

في ذلك[٢٤]:" وكيف تصفو القريحة وصفاء الوقت تكدَّر، وسيلُ المحن من أعلى الراوبي تحدَّر، مع أني في زمن تشابه فيه الضاحك والباكي، وقلَّ به الشاكر وكثر الشاكي، وفيما دُفعت إليه من المضايق، وحال دون آمالي من العوائق ما يُرْتَج به الكلامُ على الفصيح، ويشتبه الصواب على الحازم المشيح".

على أن حال كبريت قد انتهت إلى همّ الدَّيْن ومراقبة الناس له، فوجد أن في الانطواء واعتزال الحياة العامة مخرجاً مما هو فيه من هموم حتى توفاه اللّه عام ١٠٧٠هـ.

أدبه:

يمكن أن أقسم الكلام عن أدب كبريت إلى ما يلي:

١- رحلته

٢- شعره

٣- تذوقه واختياره

أولاً: رحلته:

حاول محمد كبريت أن يكون رجل إصلاح اجتماعي واتصف بعفاف اليد واللسان، وأراد أن يكون أهل زمانه أهل عفاف وقناعة، ولكن تلك المثالية التي طلبها كبريت من مجتمعه جلبت له كثيراً من الحسّاد الذين ذموه بل ضايقوه حتى تحوّل من موسر إلى فقير مدقع، وصيره زمانه إلى حالة يرثي لها شامته كما عبر في أبياته السابقة، ولم يجد بدّاً من السفر عام ١٠٣٩هـ إلى القسطنطينية قاصداً شيخ الإسلام يحيى بن زكريا بن بيرام ليشكو إليه سوء حاله وفساد الإدارة في المدينة، وكان ثمرة رحلته هذه ما دونه عن معاناته وخيبة أمله في كتاب سمَّاه" رحلة الشتاء والصيف" وقد طبعت مرتين أولاهما

(٢٤) الجواهر الثمينة١/١٣٣.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

عام ١٢٩٣هـ في القاهرة وعدد صفحاتها ١٤٢ صفحة والثانية عام ١٣٨٥هـ بتحقيق محمد سعيد الطنطاوي في (٣٦٠) صفحة ونشرها محمد نصيف.

والرحلة عمل أدبي رائع، عبر فيه مؤلفه عن شكاته من أهل زمانه، وخيبة أمله، وضمنه شعره وشعر غيره من معاصريه وسابقيه، مستشهداً بكل في موضعه، ، واصفاً المدن التي دخلها في الشام وتركيا ومصر، وحسبنا ما قاله عنها في آخرها حين قال[٢٥]: "وقد احتوت على كثير من مفيد الأخبار، وانطوت على مواعظ ترتضيها الأحبار، إلى غير ذلك مما يفيد سلامة الطبع، لمن كان له قلب أو ألقى السمع :

يا رحلـةً جـمَّعتُها ألفاظها تسـتعذب

لا تستقلّـوا حجمها فيها الكثير الطيّب

فلتكن تذكرة في الحياة، وأثراً بعد الممات، تصلح لمسامرة الجليس وتكون للوحيد نعم الأنيس".

وقد عبـَّر فيها عن أسباب سفره بقوله فيها[٢٦] :" وكنت ممن ناوأه الزمان، وكرَّ عليه بسيف حيفه الحَدَثان ، أتقلب من الحسرات على فَرْش الغضا، وأجد لما بي أضيق ما يكون سعة الفضا" إلى أن يقول" ولما عيل مني الصبر، وأعياني هذا الأمر، دعاني داعي الأماني والآمال، وحرَّكني فيه الرجاء والالتجاء إلى الكريم المتعال، أن امتطي غارب الاغتراب".

وكان يؤمل أن يكون في اغترابه أمل في حل مصابه ومما قال في ذلك [٢٧]: "فامتطيت غارب الأمل إلى الغربة، وركبت مراكب المذلة والكربة، قاصداً استعتاب الدهر الكالح، واستعطاف الزمان الغشوم الجامح، اغتراراً بأن في

---

(٢٥) ص/٢٤٨.

(٢٦) ص/٤

(٢٧) ص/٥

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الحركة بركة، وأن الاغتراب داعية الاكتساب" إلى أن يقول: " وهيهات مع حرفة الأدب بلوغ وطرٍ أو إدراك أرب، أو مع عبوس الحظ ابتسام الدهر الفظ".

أما المنهج الذي سار عليه فهو سرد لمراحل سفره منذ خروجه من المدينة إلى أن عاد إليها معبراً عن معاناته، معرّفاً بالمدن والأعلام والآثار، متمثلاً كثيراً بالشعر، مستطرداً حينما يتاح له الاستطراد، مبتعداً عن الألفاظ النابية، يقول محقق الرحلة محمد سعيد الطنطاوي[٢٨] ":أما كتابنا هذا فقد استعرضته من أوله إلى آخره، فلم أجد فيه لفظة نابية، ولا طُرفاً من المجون، وإن كان يلاحظ عليه بوضوح بعض الحياد (غير الممدوح أحياناً) فلا عصبية لفئة، ولا انقياد لطريقة، وإنما ينقل مدح هؤلاء وهجاءهم، وأخباراً عن أولئك والرد عليهم".

والمؤلف نفسه ذكر نهجه في كتابة مادة رحلته حين قال [٢٩] :" وكنتُ مهما وقفت عليه من خبر لطيف سطّرته، وأيما شعر ظريف ظفرت به قيدته وحبّرته، حتى وُجدت لدي جملة من اللطائف والظرائف قد جمعَتْها أيدي الأقلام، وأوقعتني عليها الأيام:

إن الغريب إذا ما كان ذا قلم — فلـــيس سلوته إلا بقُرْطاس

فيه يقيد ما يلقاه من نُكـَت — ومن طرائف يبديها من الراس

إلى أن يقول:" وأودعها ما أقف عليه في سفري من لطائف الأشعار، وغرائب النكت التي هي لدى طالبها غالية الأسعار، إلى غير ذلك من منثور ومنظوم".

والكلام يطول إن أردنا الكلام عن الرحلة من كل جوانبها فهي جديرة بالدراسة لما احتوت عليه من معلومات نفيسة، وتعبيرات أدبية ظريفة، وحسبنا

---

(٢٨) مقدمة الرحلة /د

(٢٩) ص/٥.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أن نقتصر على بعض ما ورد من تعبير الكاتب عن تجربته الشعورية حين خاب أمله الذي أمّل، ولم يظفر حتى بخفي حنين.

لقد وجد في القسطنطينية خلاف ما أمَّل حيث وجد هناك صراعات على حطام الدنيا أشد مما فرَّ منه في المدينة، وحيل بينه وبين لقاء السلطان مما عبّر عنه بقوله[٣٠]: "وقد تحجَّب أهل الكرم في الأبنية، فلم أرَ من السُّعُودات إلا سعد الأخبية، ولعمر اللّه، إنهم معذورون في ذلك، فلقد رأيت فيما هنالك من الطوائف القدسيين والشاميين وغيرهم ذوي عمائم كأبراج، وأكمام كالأخراج، وقد لزموا تلك الأبواب لزوم الكاتبَيْن، وصار أحدهم مع الرئيس كالخصمين المتحاسبين".

ثم يأتي وصف موقفه من هذا الصّد الذي لقيه؛ لأن خلقه لايجاري أولئك فيما يهدم الدِّين، ويورد عدداً من الشواهد الشعرية في ذلك منها:

إنما الذل في سؤالك للناس ولو في سؤال أين الطريقُ

حتى ينتهي للقول عن نفسه[٣١]:" فها أنا أخفض لهم الجَناح، وأرفع عنهم الجُناح؛ لأن الأمر مراحمة لا مزاحمة، ومحاسنة لا مخاشنة، ومناسبة لا محاسبة:

وعنيَ بالتلويح يفهم ذائق غنيّ عن التصريح للمتعنّتِ

فمشيت على هذا السنن القويم، والمسلك المستقيم، متحاشياً عن المباراة، متجنباً ما استطعت عن المماراة؛ فإنهما يهدمان الدين، ويُعْدمان اليقين:

وما كنت أدري قبل عـزّة ما البـكا ولا موجعاتُ القلب حتى تولّتِ

فإن أجنِ من غرس المنى ثمرَ العنـا فلله نـفـسٌ في مناها تـعنَّت

---

(٣٠) ص/١٨٠

(٣١) ص/١٨١

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ولســـــت بالمتصدي للقيل والقال ولا المتعدي بالجدال إلى المِحال".

ثم يصف ما انتهى به إليه المطاف من خيبة الأمل، فرضي من الغنيمة بالإيــاب وقبَّح لنفسه ما كان لها قد زان، ومما قال في ذلك[٣٢] :" ثم إني لم أزل مع الزمان في تفنيد وعــتاب، حتى رضيت من الغنيمة بالإياب، ... ولما وقفتُ على الجملة بالتفصيل، وتحققت أن الآمال سوفت بالأباطيل، أغمضت عما هو بيد الزمان، وقبَّحت للنفس ما كان قد زان، وقد نبذت المرام إليه، وقلت: خذه غير مأسوف عليه، فَسَخَت النفس بما زاد عن الزاد، ولم يبق لي من الأماني سوى الرجوع إلى أوطاني".

ثم جسَّد ما لحقه من الألم شعراً فقال[٣٣]:" ولما تزايد ما بي من الألم، ولم يبق مني عضو إلا وبه ألم، توسلت في تلك الحال، إلى العلي المتعال، أن يردّني إلى حرمه، بمنه وكرمه، وكثيراً ما كنت أتوسل بهذه الأبيات:

إلــهيَ، طال بُعديَ واغترابي وفي جنح الدجى طال التهابي

ونحو أحبتيْ قد زاد شــوقي لأهــليَ والأقارب والصحابِ

إلهي، قد وهى جلَديْ وصبري لميليَ نحــو هاتيك الشعــاب

إلهي، مــن ســواك بنا رحيم يوفّقنا إلى سنــن الصــواب

إلهي، أنت أولى من عفا عن ذنوب مثــلِ أعــداد التراب

إلهي، جد بقربٍ عن قــريب ومُــنَّ على ذهــابيَ الإيــاب

إلهي، واقضِ ليْ يا خير قاضٍ برؤيا سفح هاتيــك القبــاب

---

(٣٢)ص/١٨٣

(٣٣) ص/١٨٥

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

واعتذر كبريت عما في تعبيره عن خيبة أمله من قسوة؛ لأنه تعبير عن تجربة شعورية مُرَّة، فقال[٣٤]:" فيا ناظراً إلى ما جرى به القلم، من تسطير المشقة والألم، ليس من شرعة العقل سرعة العَذْل؛ فإن من عيَّر شخصاً ابتلي بدائه، ومن حكم الأقضية فقد أزرى برأيه، وإنما هذه نفثة مصدور،جواباً لسؤال مقدّر أو مذكور، حيث الأيام فرص مغتنمة، وغصص مقسَّمة، نسائمها سمائم، ومغانمها مغارم".

وعندما أتم كتابة الرحلة وضَّح بكل جلاء أنها نتاج قلب مكسور، وفؤاد مصدوع، ويرجو من المنصف المعذرة فيما طغى به القلم، أما الحاسد فهو لا يفتأ يبحث عن السقطات، فقال معبراً عن ذلك[٣٥]:" هذا آخر هذه الرحلة المكتوبة، ولله الحمد على فراق تلك الأوقات المتعوبة، فليكن محمولاً على متن الحلم كلامُها الموضوع، فقد علم الله تعالى أنها صدرت عن قلب مكسور، وفؤاد مصدوع،....فالمرجو من ذوي الإنصاف، والمعصوم عن وصمة الاعتساف، المعذرةُ فيما طغى به القلم، وزلت فيه القدم، على أن المعترض مصاب وإن أصاب:

وليس اعتقاد المرء ما خط كفه كما أن حاكي الكفر ليس بكافرِ

على أن الحاكم بالتخطئة لا يخلو من حسد أو عناد، ولا ينجو من هوى يعدل به عن سبيل الرشاد، وعسى أن يظفر بمخرج صالح لو دقّق النظر، أو يقف على منهج واضح إن لاحظ المقصد المعتبر، ولكن من جُبلت جبلّته بماء التعسف، وخمرت طينته بالعناد والتكلف، لا يزال يرفع عن قبول الحق شامخ أنفه، وإن أوتي الحق الصريح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه".

والخلاصة أن (رحلة الشتاء والصيف) عمل أدبي رائع جمع فيه مؤلفه بين أدب الرحلات، وبَرَز فيه حسن ذوقه في اختيار شعر غيره، وضمّنهُ كثيراً

---

(٣٤) ص/١٨٤

(٣٥)ص/٢٤٨

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

من شعره، وعبّر فيه عن ألمه وأمله، وارتقى فيه بجمال العبارة، إضافة إلى وصفه للديار والآثار والرجال، ففيه تنوع ممتع، وقد قرَّظ هذه الرحلة أحد شعراء زمانه بأبيات كتبها على غلاف الرحلة وهو الشاعر حسين بن عبد الملك العصامي (والد عبد الملك العصامي، صاحب كتاب سمط النجوم العوالي) في قوله مخاطباً محمد كبريت[٣٦]:

جـمَـعْتَ في رحلة أنشأتـها أدبـاً   وكان من قبلُ فيه أيٌّ تشتيتِ
وقد أقـرَّ لك الراوون حين بـدت   تميس في حُلّـتيْ درّ وياقوتِ
لا تعجبوا أن جلَتْ عنكمْ غياهبـكم   فإنها جذوة مـن نار كبـريت

شعره:

لقد عرضنا سابقاً نماذج من شعر كبريت تظهر شيئاً من شاعريته، وهو واحد من شعراء الحجاز في القرن الحادي عشر الهجري، وقد درستُ شعره ضمن دراستي للشعر الحجازي في القرن الحادي عشر، ولم أجد من ذكر له ديواناً ممن ترجموا له، وقد يكون له ديوان، فهو له شعر كثير في مؤلفاته، وفي مصادر ترجمته وهناك شعر لم ينسبه لنفسه في بعض مؤلفاته وإن كان السياق يدل على أنه له كالأبيات التي أنشدها في مقدمة كتابه" الجواهر الثمينة في محاسن المدينة" التي مطلعها[٣٧]

بلـدة ما رأيتـها قـط إلا   قلت: هذي أرضي ومسقط رأسي
لستُ أشكو بها من العيش إلا   أنـنـي لا أزال فـي جـلاسـي
بذلـوا لي مع السمـاحة وداً   وهو منهم يزيد في إينـاسـي

(٣٦) ابن معصوم:سلافة العصر/٢٧٦.

(٣٧) الجواهر الثمينة في محاسن المدينة١/١١٨.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وكقوله[٣٨]:

لست آسى على تفرق شملي غير قبري بأي أرض يـــكون

أبــأرض البقيع تحت تراب فيه جدّي ووالدي مدفـــــون

بين قوم أعــزَّةٍ في حماهم ولهــم عنــد ربــهم تمــكــين

أم بأرض أخرى، فياليت أني في سوى أرض طيبةٍ لا أكون؟

تلك أرض لخاطري مثل ليلى وفـــؤادي بــحبها المــجنون

وثــراها لمقلــتي إن تــراها إثمد منه تســتــنــير العيون

إن ظــني بخالقــي لجميــل ليس في مثلــه تخيب الظنون

فالنَّفَس العام لهذه الأبيات فيه طابع شعره: فــي حبــه للمدينــة، ووصــفه لأماكنها، ويرجح ذلك أن بعض هذا الشعر (الــذي نغلّــب أنــه لــه) قــد ورد منسوباً إليه في مؤلفات غيره، وإن لم ينسبه لنفسه في مؤلفاته، وهــذا النــوع من الشعر يوجد في كتبه وبخاصة "الجواهر الثمينة في محاسن المدينة" وفــي رحلته، وفي كتابه" المطلب الحقير" وكتابه "نصر من اللّه وفتح قريــب" وهــو في بعض الأحيان يصرح بشعره بقوله" قلت في ذلك وإن لم أكن هنالك".

ويدور ما ورد من شعره في المصادر حول المدينة المنورة، وحبه لها، وشوقه إليها، ووصف بعض أماكنها، وفي فخره بنفسه، وفي مدح بعض العلماء، وفي الحكمة، والإخوانيات، وفيه غزل قليل، وليس له مدح أو هجاء بالرغم من حاجته للمدح والهجاء لما سبق أن ذكرنا من علاقته بمجتمعه، ولكنه كان ذا نفس كريمة، تأبى الذل وتترفع عن الابتذال، وتكرم نفسها عن ذم الناس وإن نالوا منه، وهو يتفق في هذا مع شاعر المدينة المعاصر له محمد بن رسول البَرْزَنجي(ت ١١٠٣هـ) وهو من أبناء عمومته أيضا الذي عبّر عن

(38) المصدر نفسه ١/١٧١.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ترفعه عن هجاء من نالوا منه بقوله في قصيدة من عيون الشعر في مكارم الأخلاق(٣٩):

وكل حكيم مبتلى أي بجـــــاهل ولو أنه لقمان أو هو أحكم

وإني علتْ بي همتي مفرق السها فلست لجيفات الدّنى أتشمَّم

وقد اقتصر مدح كبريت على العلماء، كقصيدته في مدح شيخ الإسلام يحيى بن زكريا بن بيرام حين قصده في القسطنطينية شاكياً إليه سوء الأحوال في المدينة المنورة، ومطلعها(٤٠):

الجودُ بالجاه فوق الجود بالمــال فكيف بالجود بالأمرين في الحالِ

وذاك فيمن سَمَا قـدراً ومرتبة وخص بالـيُمن في حال وفي قال

حبر العلوم ومن أضحت براعته تهدي إلى الحق في حل وتَرْحال

ومن شعره في الحكمة قوله في قيمة العلم والمال(٤١):

قيمة الإنسان بالعلم كـــما قيمة العلم بمال مسعدِ

فاسعَ في تحصيل كل منهما فهما للمرء أهنا موردِ

وقال في صيانة العلم عن الابتذال(٤٢) بمناظرة الجهول:

وإذا جلست مع الرجال وأشــرقت في جوّ باطنك المعاني الشرَّدُ

فاحــذر منــاظــرة الجهول فربما تغتاظ أنت ويســتفيد فيَحْسُدُ

تذوقه واختياراته:

(39) انظر القصيدة في كتابي : الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر ٦٤٣/٢

(40) ابن معصوم: سلافة العصر/٢٥٧ وانظر الشعر الحجازي ٥٩٨/٢.

(41) الجواهر الثمينة٥٥٤/٢.

(42) ابن معصوم:سلافة العصر/٢٨٥ وغيره.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

كما أن كبريت كان عف اللسان واليد فهو عف القلم أيضاً، فقد ابتعدت عباراته وشعره عن الألفاظ النابية حتى مع الذين ضايقوه أو ذموه بل اتهموه في دينه بتهمة الإلحاد، ولم يزد في رده عليهم عن قوله[٤٣]:" على أن الحاكم بالتخطئة لا يخلو من حسد أو عناد، ولا ينجو عن هوى يعدل به عن سبل الرشاد، وعسى أن يظفر بمخرج صالح لو دقق النظر...".

ومن أفضل ما قيل في الدفاع عنه ما قاله الزركلي حين ترجم له في الأعلام حيث قال[٤٤]:" ووصمه بعض معاصريه بالإلحاد على عادتهم فيمن خالف أساليبهم في البحث" وكل ذلك برز في كتب كبريت كلها فلم ينل ممن نالوا منه، ولم يسف في عباراته حتى إذا لمـّح لشيء من ذلك لـمّح بأسلوب عف راق، وقد امتاز في كتبه بإبداء رأيه فيما كَتَبَ عنه، وبذكر الرأي وضده، فحيناً يرجح، وحيناً آخر لا يرجح، وامتاز أيضاً بالحياد عند إيراده آراء الآخرين، والأدب الجـــم معهم، واستشهد على نهجه هذا بقول الشاعر[٤٥]:

هذا اختياري فوافق إن رضيت به أوْ لا فدعني ومن أهوى وأختار

وفي كتابه "الجواهر الثمينة في محاسن المدينة" أمثلة كثيرة لذلك.

وهو في اختياراته الشعرية يفوق شاعريته، وتدل تلك الاختيارات على سعة حفظه من الشعر الذي ملأ به كتبه كالجواهر الثمينة في محاسن المدينة، ورحلته، ونصر من الله وفتح قريب، والمطلب الحقير، وغيرها فما طرق موضوعاً فيها إلا أورد فيه شعراً في الشيء وضده، ومن مختلف القرون السابقة له[٤٦].

---

(43) رحلته/٢٤٨.

(44) الأعلام٦/٢٤٠.

(45) انظر الجواهر الثمينة١/١٨٤.

(46) انظر مثلاً ما أورده في العلم ، الجواهر الثمينة ٢/٥٥١.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

إن محمد كبريت أديب في مؤلفاته من حيث نزاهة الرأي، واحترام الرأي الآخر، والسمو بالكلمة، وحسن اختيار الشواهد، والتعالي عن النيل من الآخرين، فهو أديب في نفسه، وأديب في قلمه، وصاحب نَفَس أدبي في أسلوبه في كل مؤلفاته، التي جمع فيها بين رقة العبارة، ودقة المعنى، وتلك قدرة لا يمتلكها كثير من المؤلفين والكتَّاب.

مؤلفاته:

ألف كبريت مؤلفات بديعة كما قال عنه المحبي في خلاصـــة الأثر[٤٧] أو هي " مؤلفات وسام، كأنها في فم الزمان ابتسام" كما قال ابن معصوم في سلافة العصر[٤٨] وقال عنها الحموي في فوائد الارتحال ونتائج السفر[٤٩]:" وكلها مقبولة متداولة ، وقد وقفت على غالبها وطالعته فوجدته أحسن الجمع فيها جداً".

وقد أحصيتُ له (١٩) كتاباً بعضها مطبوع، وأكثرها مخطوط، وبعضها لم أجده ولكن ذكرته مصادرُ ترجمته والكتبُ التي عُنيت بالتعريف بالمؤلفات، والمطبوع منها(٤) فقط، وقد وضحت ما طبع منها وما هو مخطوط، وما نصَّ عليه مترجموه أو المعنيون بالتعريف بالمؤلفات[٥٠] ، وذلك كله في تقديمي لكتابه الجواهر الثمينة في محاسن المدينة الذي حققته ونشرته، وسأقتصر هنا على(٤) منها لصلتها بأدبه الذي هو مجال البحث:

١- رحلته وقد سماها **رحلة الشتاء والصيف**، وقـــد سبق الكلام عنها.

---

(47) ٤/٢٨.

(48) ص/٢٥٧.

(49) ١/ورقة ١٣٣.

(50) انظر تفصيل ذلك في مقدمتي للجواهر الثمينة ١/٢٦-٣٠.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

٢- **الجواهر الثمينة في محاسن المدينة**، وقد وفقني الله لتحقيقه ونشره في عام ١٤١٩هـ (١٩٩٨م) وهو يأتي في منظومة الكتب التي ألفت في فضائل المدينة المنورة وإن كان المؤرخون صنفوه من كتب التاريخ، والجغرافيون صنفوه من كتب الجغرافيا، والأدباء صنفوه من كتب الأدب، ولو صنف من كتب الزراعة أو الفلك أو الاجتماع لكان ذلك ممكناً يضاف إلى ذلك كثرة استطراداته واحتواؤه على (٣٢٥) حديثاً نبوياً أكثرها في فضائل المدينة، وعلى(٨٨) أثراً و(٩٢) كتاباً ذكرهـا في متنه ناقلاً عنها و(٣٧) مسألة طبية أكثرها يتعلق بالماء والتمر وغير ذلك مما وضحته في الفهارس التي ألحقتها به.

وقد قسّمه مؤلفه إلى مقدمة فمقالتين جعلهما في أبواب، فخاتمة، وخصص المقالة الأولى لمحاسن المدينة في المكان بحيث ذكر محاسن كل مكان في المدينة الطاهرة من جميع الجوانب، وخصص المقالة الثانية لمحاسن المدينة في الزمان، وذكر فيها ما يكون في المدينة من مناسبات خلال شهور السنة العربية أو فصولها وبروجها ثم أنهى الكتاب بتتميم فيما أسعد الله به أهل المدينة، فخاتمة فيما حصل لهم من شرف الجوار، ذاكراً شمائلهم وما لهم من حق الرعاية، واضعاً منهجاً لمن أراد المجاورة بها، وجاء في أثناء ذلك كله باستطرادات استدعتها الحاجة وكانت من جنس حشو اللوز ينج كما قال.

وتظهر في الكتاب ثقافة المؤلف الواسعة في مختلف الفنون التي طرقها، ومما يحمد له فيه حياده عند إيراد الآراء ونسبة كل قول لقائله في المسائل التي فيها رأي، وقد يؤخذ عليه إيراد الآراء المتضاربة ، ولكنه نهج اتخذه لنفسه، تاركاً للقارئ أن يميل إلى ما يراه.

أما سبب تأليفه فهو كرَّة أخرى منه، بعد إخفاقه في رحلته عام ١٠٣٩هـ، فقد ألفه سنة ١٠٤٨هـ وضمنه الشكوى المرَّة مما لحق به من مجتمعه، وصرح فيه في أكثر من موضع أن شكواه من ثقل الدَّين، مورداً فيه ما حصل من تجاوز الكتَبَة والقضاة وشيخ الحرم في توزيع ريع الأوقاف

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

والصدقات، وكان يطمح أن يندرج كتابه في خزائن السلطان العثماني مراد بن أحمد خان، ولكن الثريا كانت أقرب تناولاً من ذلك المرام، فسلك طريقاً آخر وهو إهداؤه لشعبان بن ولي الدين النَّوَسِيلي البوسْنَوي قاضي مصر إذ ذاك الذي حج سنة ١٠٤٧هـ فتعرف عليه كبريت ولذا أهدى إليه الكتاب حين ألفه سنة ١٠٤٨هـ.

غير أن كبريت الذي أخفق سنة ١٠٣٩هـ ولم تثمر رحلته السفرية سوى رحلته المكتوبة (رحلة الشتاء والصيف) قد تكرر إخفاقه في محاولته الثانية ولم تكن لتلك الشكوى الثانية من ثمرة سوى كتاب الجواهر الثمينة الذي بقي أثراً له، وتاريخاً لحياته ومجتمعه.

٣- **نصر من الله وفتح قريب**، وقد طبع طبعة قديمة، وله عدة نسخ مخطوطة، والباعث لكبريت على تأليفه أن درويش مصطفى بن قاسم النابلسي نزيل المدينة (ت١٠٨٠هـ) نظم في مجاورته سنة ١٠٣٢هـ أبياتاً في مدح مكان بناه شيخ الحرم المدني، فلما شاعت الأبيات السبعة وقف عليها فتح الله بن النحاس الحلبي الشاعر المعروف _ وكان مجاوراً بالمدينة_ فهزئ بها، وألف رسالة سمَّاها (التفتيش عن خبالات درويش) فألف كبريت كتابه (نصر من الله وفتح قريب) انتصاراً لدرويش، شارحاً كل بيت من حيث اللغة والعروض والمعنى والمحسنات البديعية، وفي البيت الأخير زاد وجهاً عن فن التاريخ والتَّعْمِية، وقد أورد المؤلف في كتابه كثيراً من الأشعار والتراجم لمعاصريه وسابقيه، وكثيراً من الاستطرادات المفيدة، ومخطوطته في مكتبة عارف حكمت(٢١٤) ورقة، وفيها من العناية بكتابتها وحسن خطها وتلوينها ما يشد الانتباه أما مخطوطة جامعة الملك سعود فهي في ٣٣٦ورقة.

٤- **المطلب الحقير في وصف الغني والفقير** وتوجد منه نسخة مخطوطة في جامعة الملك سعود أوراقها ١٤٢ ورقة ، وهو من أعجب كتبه، ويكمل فيه ما تناوله في رحلته وفي كتاب الجواهر الثمينة من صراع الناس على حطام

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الدنيا، ويغني عن الإطالة في وصف الكتاب ما قاله مؤلفه في أوله[٥١]:" وقد بنيتُ هذا الكتاب العجيب الخطاب على أربعة أبواب، الباب الأول في الفقر المُظْلم، الباب الثاني في الفقر المُشْرق، الباب الثالث في الغنى المفسد، الباب الرابع في الغنى المسعد، وسميته المطلب الحقير في وصف الغني والفقير، وحقيقته رمز في غمز، وإشارة في عبارة، وهداية إلى كفاية" وقال في آخره[٥٢]:

لِلّه تأليف غدا جامعاً بين النقيضين لمن يعقل

جامعه أغرب في نقله لكنــه لم يدرِ مــا ينقل

(51) ورقة/٣.

(52) ورقة ١٤٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة